# من ثقافة الهزيمة إلى ثقافة الثقة بالنفس

زياد حافظ

## النشوة والهزيمة

يعيش الإنسانُ العربي بعد ١٢ تموز، بالتحديد، نشوةً غريبةً عجيبةً لم يألفْها منذ أكثر من ستين سنة، بل ربما إلى فترةٍ تعود إلى معركة عين جالوت التي أوقفت الهجمةَ المغولية، أو إلى معركة حطّين التي شهدتْ هزيمةَ «الفرنك.» والمثقف العربي شاهدٌ على (وأحيانًا مشاركٌ في) الهزائم المتتالية التي مُنيتْ بها أنظمةٌ نَخَرها الفسادُ حتى أصبح هاجسُها الأوحد هو الحفاظ على ذاتها. وهذه الأنظمة أفرزتْ ثقافةً خطيرة، هي ثقافة الهزيمة، وهدفُها تكبيلُ طاقات الشعوب العربية، وإخضاعُها إلى «قيم» الريع والفساد بوصفها «تراثًا» لا يُمْكن التخلّي عنه تحت طائلة «التغريب» و«استيراد الثقافات الخارجية.»

تتراوح العناوينُ المتعددة لثقافة الهزيمة بين «الواقعية» و«العقلانية» و«الحداثة» و«الديموقراطية» و«الليبرالية» ــ وجميعُها تلفيقُ أُلحِقَ بثقافة النظام القائم، يردِّدها أربابُها كالببغاء، وكانت وماتزال تَهْدف إلى إحباط (بل وإلى شيطنة) كافة المجهودات التي تريد أن تنقل المجتمعاتِ العربيةَ من واقع الاحتلال إلى واقع التحرير، ومن واقع الشرذمة إلى واقع الوحدة، ومن واقع الاستبداد إلى واقع الحرية، ومن واقع التبعية السياسية والاقتصادية إلى واقع المساءلة والاستقلال الذاتي، ومن واقع الركود الثقافي إلى واقع التجدُّد المبنيّ على التراث، ومن واقع التخلّف العامّ إلى واقع النهضة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحال أنّ كلّ هذه الأهداف التي عبّرتْ عنها، عبر العقود الستة الماضية، كافةُ حركات التحرّر العربية والتيارات السياسية الوحدوية قد كان لها بالمرصاد التحالفُ الجهنميُّ بين الاستعمار والإمبريالية من جهة والصهيونية وقوى الرجعية والقمع العربية من جهة ثانية.

هذه الثقافة التعيسة روّجتْها نخبةٌ من المثقفين العرب، واللبنانيين بشكل خاص، سواء لاعتباراتٍ معيشيةٍ أو بسبب قناعتهم بالهزيمة ـ علمًا أنّ الهزيمة أصابت الأنظمةَ أساسًا، لا الشعوب. وهذه النخب مسؤولةٌ بشكل مباشر عن إحباط عزيمة الشعوب في التمرّد على الواقع (المفروض بكافة أشكال القمع) وأوصلتْها إلى أفقٍ مسدودٍ في إمكانية تغيير النظام السائد. والحقّ أنّ خطاب هذه النخب لا يتجاوز السعيَ إلى نيل رضى النخب الغربية، دون الالتفات إلى مصالح الشعوب العربية. كما أنّ النخب الانهزامية التي ارتدت لباسَ «المعارضة» باشرتْ بترويج ثقافة الالتحاق بقوةِ المستعمرِ الجديد ـ القديم من أجل تغيير الواقع وفقًا لمصالحها الضيقة والمتقاطعة مع مصالح الإمبريالية الجديدة. هكذا كان النموذجُ العراقي، وهكذا هو النموذج الذي تمثِّله بعضُ رموز قوى ١٤ آذار في لبنان.

## أبعاد المشروع النهضوي

ولكنْ، في المقابل كانت وما تزال نخبٌ عربيةٌ ولبنانيةٌ تقاوم ثقافةَ الهزيمة، وتروِّج، لمشروع عربي نهضوي وحدوي جديد، وتتمسّك بخطابٍ قومي لا يتناقض مع متطلّبات الشأن القُطْري. هذه النخب الملقّبة بـ «أصحاب اللغة الخشبية» هي صاحبةُ تاريخ نضاليٍّ عريق يعود إلى أيام النهضة العربية والإسلامية في القرنْ التاسع عشر، مرورًا بحقبة التحرر العربي والمدّ القومي في الخمسينات والستينات أما حقبة السبعينات فشَهدتْ صعودَ ما يُمْكن تسميتُه بـ «الثورة المضادّة» عبر الإفساد المادي التي مارستْه الأنظمةُ النفطية وترويج ثقافة الهزيمة ولكنّ النخب التي لم تَرضخْ للابتزاز المادي والترهيب باشرتْ بمراجعة خطابها السياسي والثقافي في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي، عبر بلورة المشروع العربي النهضوي الوحدوي بأبعاده الستة، وهي:

١ ـ الديمقراطية في مواجهة الاستبداد.

٢ ـ العدالة الاجتماعية في مواجهة الاستغلال

٣ ـ الوحدة العربية في مواجهة التجزئة

٤ ـ الاستقلال في مواجهة الهيمنة الأجنبية والمشروع الصهيوني

٥ ـ التنمية المستقلة في مواجهة النموّ المشوَّه والتبعية

٦ ـ الأصالة الحضارية في مواجهة التغريب والمسخ الحضاريَيْن

كيرستن شايد

منزل بيت بزيع حيث حصلت المجزرة في زبقين

كان ذلك المشروعُ النهضوي، وما زال، وراء دعم النخب المناهضة لثقافة الهزيمة لكافة حركات التحرر العربي في فلسطين والعراق ولبنان. من هذه الزاوية نَفْهم مدى ترابُطِ تلك النخب مع إنجازات المقاومة في كافة الأقطار العربية التي تشْهد صراعًا مكشوفًا ضدّ المشروع الأميركي ـ الصهيوني المشترك. ومن تلك الزاوية نَفْهم إصرارَ الإدارة الأميركية وإسرائيل وأعوانِهما، من أنظمة ونخب عربية ودولية مرتبطة بها، على القضاء على أيّ شكل من الثقافة المقاومة أو الممانعة للمشاريع المشبوهة والمناقضة لمصالح شعوب المنطقة.

صحيح أنّ معظم حركات المقاومة هي حالياً من منبتٍ دينيّ. إلاّ أنّ الخطابَ السياسي لتلك الحركات هو قوميٌّ بامتياز؛ ولو لم يكن كذلك لما استطاعت استقطابَ قواعد شعبية واسعة. فالحركات الإسلامية، كالإخوان المسلمين في مصر أو في سوريا أو في العراق، ليست كحركتيْ «حماس» أو «الجهاد الإسلامي» في فلسطين المحتلة. والكلّ يَذْكر كيف كان الخطابُ السياسي الإسلامي البحت لحزب الله في مطلع الثمانينيات، وكيف لم يستطع أن «يقلِّع» بعد أن تبنّى حزبُ الله مشروعَ تحرير الجنوب، وصاغ خطابَه السياسي بالمبادئ الوطنية والقومية، فاستطاع عندئذ أن يمثِّل مشروعًا تحرريّاً وطنيّاً وقوميّاً يلتقي مع كافة أطياف المجتمع اللبناني والعربي.

إنّ التلاقي بين التيارين الإسلامي والقومي يتمثَّل في الخطاب السياسي المقاوم للمشروع الأميركي ـ الصهيوني المشترك وهذا التلاقي يشكِّل منعطفًا إستراتيجيّاً هامّاً في توحيد القوى المناهضة لقوى الهيمنة والتوسع. كما لا بدّ من الاعترافِ بأنّ ذلك التلاقي لا يلغي خصوصياتِ التياريْن، ولا حتى الملفّاتِ العالقةَ التي حالت دون التوافق في حقبة التناحر المدمِّر بينهما. فالمرحلة الحالية هي مرحلةُ التصدِّي للمشروع الأميركي ـ الصهيوني، لا مرحلةُ الصراع على السلطة. كما أنّ المرحلة الحالية تقضي باستمرارِ الحوار حول كافة القضايا المرحلية والإستراتيجية ضمن إطار «المؤتمر القومي العربي» و«المؤتمر القومي ـ الإسلامي »

والواقع أنّ الخطاب السياسي المقاوم مرشَّح للانتشار لبنانيّاً وعربيّاً بعد الإنجاز الذي حققته المقاومةُ في لبنان. لكنّ ذلك يتطلب مجهودًا كبيرًا من المثقفين الملتزمين بمقاومة المشروع الأميركي ـ الصهيوني المشترك. فالهدف الإستراتيجي لذلك المشروع، وهو القضاء على ثقافة المقاومة وترسيخُ ثقافة

# من ثقافة الهزيمة إلى ثقافة الثقة بالنفس

الهزيمة، مُنِيَ بهزيمةٍ نكراء بسبب صمود المقاومة أمام العدوان الإسرائيلي. ولكنّ ذلك لا يعني نهايةَ الحرب المفتوحة، ولا نهاية المعركة. فما هي، إذًا، المهامُّ الواقعة على عاتق المثقفين؟

## مهمّات المرحلة ثقافيّاً

أعتقد أنّ المهمة الأولى هي محاصرةُ الخطاب الانهزامي، عبر التذكير مرارًا وتكرارًا بإمكانية المقاومة الناجحة. ويتمثّل ذلك في إبراز فشل الطروحات القُطْرية الضيقة والخيارات الإستراتيجية التي رافقتْها، وفي الترويج للخطاب القومي في القُطْر، كما على مستوى الأمة. ثانيًا، لا بدّ من طرح مشروعٍ ثقافي بديلٍ للمشروع الاستسلامي، منبثق من المشروع العربي النهضوي الوحدوي المذكور سابقًا. فكما ظَهرتْ نهضةٌ ثقافيةٌ في الخمسينات والستينات في ذروة المدّ القومي فإنّه لا بدّ من ترجمة المشروع البديل إلى إنجازات ثقافية تَعْكس مزاجَ الشعب المشدود إليه. ثالثًا، لا بدّ من إنشاء مرجعية فكرية سياسية هدفُها حشدُ الطاقات الفكرية وتفعيلُها لمعالجة مختلف القضايا الناتجة عن فعل المقاومة وعن طرح المشروع البديل. وهذه المرجعية لا بدّ من أن تصبح القوةَ الضاغطةَ على مسلكية النخب المثقفة العاملة وعلى إنتاجهم، ولاسيّما بعد الانتقال من العمل الفردي إلى العمل المؤسسي، خاصةً بين المثقفين، الأمرُ الذي يَفْرض إنشاءَ معاهد ومراكزِ أبحاث تحدِّد الأولويات في مختلف المراحل.

أما على الصعيد اللبناني فبالإضافة إلى ما سبق فإنّه لا بدّ من معالجة الوضع الداخلي، وخاصةً التركيبة الداخلية الطائفية المستندة إلى «ثقافة» الريْع والفساد المتناقضة مع مقتضيات الدولة الحديثة القوية. إنّ النظام الطائفي يولّد التجزئةَ والتفككَ الاجتماعي، ويعطّل تحقيقَ اقتصادٍ منتج تتمّ من خلاله المحاسبةُ والمساءلةُ السياسية والاقتصادية والاجتماعية. والاقتصاد الريعي السائد يعوّق، بل يَمْنع، تحقيقَ الديموقراطية بسبب تلازمه مع الفساد المتفشّي، ويكرّس التبعيةَ للخارج، ويُضعف اللحمةَ الوطنية التي تتعرّض إلى هزّات دورية كلما تأزّمت الحالةُ في المنطقة. وكلاهما، النظام الطائفي والاقتصاد الريعي، يمنعان قيامَ الدولة التي تحمي الوطنَ والمواطنَ وتؤمّن له التنمية والرفاهية. لذلك أعتقد أنّ دعم المقاومة في لبنان وثقافةِ المقاومة بشكلٍ عام مرتبطٌ عضويّاً بإعادة بناء المجتمع اللبناني على قاعدة اقتصادٍ منتج ومتوازنٍ قطاعيّاً وجغرافيّاً ووفقًا لمؤسسات تعتمد المساءلة والمحاسبة.

إنّ مهمة المثقف المقاوم هي إعادةُ صياغة طبيعة الدولة اللبنانية - من دولة «الحاجز» إلى دولةٍ قائمةٍ بحدّ ذاتها تستطيع تسويقَ رغباتها وتَرْفض الإملاءاتِ عليها.

**د. زياد حافظ**

كاتب وباحث لبناني عربي مقيم في الولايات المتحدة